اللغة العربية الفصيحة المنطوقة ودورها في المجتمع العربي

للأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح*
رئيس المجمع الجزائري للغة العربية

إن اللغة هي دائما مرآة للوضع الحضاري والمستوى العلمي والتكنولوجي للأمم ولغتنا لا تنقل في عصرنا الحاضر الأفكار والنظريات العلمية الطلائعية لأسباب كثيرة وهذا هو الواقع المؤسف. فالوضع العلمي للعرب حاليا المتصف بالقليل جدا من الإبداع والخلق لا يؤتي أي فرصة للغتهم لكي تكون لغة إشعاع علمي حضاري. فالعجز ليس من اللغة أبدا فأية لغة في الدنيا يمكن أن تبلغ ما بلغته اللغة الإنكليزية بتفوق أصحابها علميا وحضاريا. فهذه اللغة متفوقة على غيرها الآن بما تنقله من معلومات لا تنقلها اللغات الأخرى فلا تساويها بالتالي قيمة. ولولا أن العربية لغة الإسلام ولولا أنها تحمل من المفاهيم الحضارية والدينية السابقة الوجود والكثير من المفاهيم العلمية التراثية التي كانت أساسا لانطلاق الحضارة الغربية لاندثرت منذ زمان أو انزوت إلى لغة لا كتابة لها ولا تراث واختفت في هذه اللهجات التي تفرعت عنها.

* ألقى هذا البحث في مؤتمر مجمع القاهرة السنوي في شهر ماي من عام 2011

فهذا من أهم الأسباب في غزو اللغات الأجنبية للعالم ولاسيما الإنكليزية وعجز اللغات الأخرى عن منافستها.

أما الأسباب الخاصة باللغة العربية فهي متصلة بكيفية تعاملنا بلغتنا فمن ذلك موقفنا منها في التعليم فلا نعلم منها إلا ما هو مقروء ولا يعلم الطفل كيف يحدّث غيره من دون أن يُحس المخاطب أنه يقرأ من كتاب ويقتنع بالتالي أن العربية الفصحى غير صالحة للتخاطب العادي حتى ولو كانت لغة الثقافة وقد يؤدّيه ذلك إلى أن يقول باقتناع أن العامية هي التي يجب أن تكون لغة الثقافة في عصرنا هذا.

العربية الفصحى هي لغة الثقافة لا العامية

إن اللغة العربية الفصحى قد صارت بالفعل عبر القرون هي لغة الثقافة ولغة كل من كان له مستوى من المعرفة ومنهم العلماء. فهي اللغة التي يتعلمها في المدرسة كل جيل من العرب على ممر القرون كما صارت لغة الدولة منذ زمان بعيد. هذا بخلاف العاميات المختلفة المنتشرة في البلدان العربية. فلم نسمع قط أن دولة من الدول الغابرة الناطقة بالعربية وحتى في زماننا هذا قد تخلّت عن العربية الفصحى وأحلّت محلها عامية من كان يسودها من ملوكها أو من طبقة اجتماعية معينة. كما حصل ذلك بالنسبة للهجات الغربية التي حظيت بوجود ملك ينطق بها فأعلى شأنها بجعلها لغة الدولة الرسمية[1]. وعلى هذا فلمثل العربية الفصحى كلغة ثقافة دور عظيم وخطير جدا لأنها تقوم بالدور الذي تقوم به الآن

انكليزية شكسبير وفرنسية فولتير وألمانية غوته وإيطالية دانتي. فلا يتلقى أحد من أطفال هذه الشعوب دروسًا لغوية لكسب الثقافة إلا بهذه اللغات الفصيحة المخصصة للثقافة فلغة الثقافة الوحيدة في كل واحد من هذه البلدان هي هذه التي ذكرناها وهي لغة أدبائها وكتابها وعلمائها ولغة الدولة.ولا يخطب ملك أو رئيس فيها إلا بها لا بلهجة إقليمية أو بعامية من عامياتها (مثل الـ: Cockney في انكلترا) ولا يؤلف كتاب أدبي أو علمي إلا بها. فعربيتنا الفصحى هي بمنزلة كل واحدة منها .

فهذا شأن لغة الثقافة فلا توجد أية لغة عامية في أي بلد راق تحظى بهذا الدور وهذه المرتبة. أما استعمال اللغة الفصحى في التخاطب اليومي وخاصة في المستوى الذي يتميز بالمفاهيم الثقافية غير العادية فهذا الميدان هو الذي لا يتعثر فيه الغربيون في الغالب ويتعثر فيه المواطنون العرب الآن وهو موطن من مواطن ضعفهم. ويا للأسف!

وقد اقتنع بعضهم بسبب قلة معرفتهم لدور الفصحى العظيم بضرورة إقامة العاميات في كل بلد عربي مقام الفصحى لعدم استعمال الناس لها في التخاطب اليومي العادي وعدم استجابتها فيما يزعمون لما تقتضيه حضارة المشافهة الحديثة. فهذا موقف غير موضوعي لأنه يتناسى هؤلاء أن لكلّ الأمم المتحضرة لغة مخصصة للثقافة ولغة يتخاطبون بها يوميا. كما يتناسون أن لجميع اللغات في الدنيا مستويين على الأقل في التعبير: المأنوس والمنقبض أو المسترسل والإجلالي. ولكل واحد منهما وظيفة في المجتمع يقتضيها اختلاف الأحوال لأفراده من أنس وانقباض.

هذا ثم لابد من الإشارة إلى أن موضوع الخطاب غير المقام. فقد يكون الموضوع ثقافيا أو علميا والمقام غير مقام انقباض بسبب الشخص الموجّه إليه الخطاب. كأن يجري الحديث بين مثقفين في موضوع عالي المستوى (ولو لم يكن علميا) في حالة لا يكون فيها انقباض.

ابتعاد العاميات عن الفصحى وانفرادها بالخفة لانفرادها بالتخاطب العادي

إن القرون الطوال من الجمود الفكري وعدم الإبداع في العلوم والفنون وتقلص التجديد في أساليب العمل والتسيير في جميع الميادين وبالتالي ضآلة الإنتاج الفكري والصناعي والحضاري عامة مع الغزو الاستعماري الشرس الذي نشر في الشعوب العربية-وسائر الأمم غير العربية- الفقر وزرع الجهل كان كل هذا سببًا لجعل الأمية تسود وتعمّ كل الشعوب العربية في أغلبية أفرادها. فنتج عن ذلك ابتعاد الفصحى وهي لغة الثقافة عن لغة التخاطب اليومي ابتعادا ملموسا. وذلك لأن الأمية إذا اتسعت وشملت العدد الكبير جدا من الناس وتدني المستوى الثقافي بالتالي أصاب ذلك لغة المشافهة العفوية فتتحول سريعا عما كانت عليه لغة الثقافة في أبنيتها النحوية الصرفية كما ابتعدت لغة التخاطب اليومي قديما عن لغة القرآن لسبب آخر وهو اختلاط العرب بغيرهم. فالعاميات زاد ابتعادها عن الفصحى (في أكثرها) بهذه اللأمية التي شملت الجماهير من المواطنين.

ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للغات الغربية فلغة التخاطب في البلدان الغربية -إن لم تكن لهجة محلية- قريبة من لغة الثقافة إلا في المصطلحات العلمية الدقيقة. وهو شئ ينقص العربية. والسبب في ذلك هو قلة الأمية عندهم وقدرة كل واحد في الأكثر على النطق بلغة الثقافة ويكون ذلك على درجات. وشئ مهم جدا ينبغي أن يؤكد عليه وهو معروف عند علماء اللسان وهو أن لغة التخاطب الشفاهي العفوي هي أخفّ من حيث الأداء بكثير من اللغة المحررة أي أقل كلفة في تأديتها لأنها تُستعمل يوميا بل في كل دقيقة وخاصة في وقت الاستئناس وعدم الانقباض. والواقع أن لكل لغة في الدنيا، قديما وحديثا، مستويين في الأداء الشفوي، كما مرّ بنا، المستخف منه والمنقبض المرتّل. فالأول هو الخاص بالتخاطب اليومي العادي ويكثر فيه التخفيف كاختزال الحركات (وسمي بالاختلاس والإخفاء عند النحاة) والتسكين وتخفيف الهمزة والحذوف للحروف والكلم والإدغام الكثير بين أواخر حروف الكلمة والكلمة التالية وغير ذلك من أنواع التخفيف. وأما الثاني فهو الأداء الذي يتمسك به عندما يرتفع الحديث من مستوى التعبير عن حاجات الناس والتبادل العفوي بينهم غير المتكلف إلى مستوى التعبير عن المفاهيم العالية الثقافية عامة كما في الخطب والمحاضرات في المحافل وكل خطاب موجّه للجمهور وخاصة المثقف منه وكل مقام ذي حرمة.ويتم الأداء فيه بتحقيق الحروف وعدم اختلاس الحركات بل بإشباعها (حتى الإعرابية في زماننا)وبه يرتل القرآن . ومهما كان فالمتكلم به هو دائما

منقبض غير مسترسل في كلامه بسبب وجوده في مقام حرَمة. ولابد أن يتصف المنقبض من الأداء بشيء من التحفظ في استعمال الألفاظ المناسبة والنطق المناسب للمقام وقد يبلغ المقام إلى أن يكون الأداء ترتيلا أو قريبا منه. وكل الأمم التي لها حضارة كتابية تحافظ على هذا الأداء الإجلالي لأنه هو الأصل في وضع اللغة ولذلك هو الذي يجمعها ويحفظ لها تراثها وهو أبطأ تغيّرا عبر الزمان من الأداء العفوي.

إلا أنه من أسرار التفوق الحضاري والاقتصادي في زماننا ألا يكون هذا الأداء المنقبض هو الوحيد الذي ينقل الثقافة. فللكلام المنطوق أهمية مماثلة للكلام المكتوب وخاصة في عصرنا هذا بل قد يفوقه بتطور وسائل الاتصال الشفاهي حتى في ميدان الثقافة ويتجاوز كل ما هو مقروء فلا يمكن أن ينطق بالفصحى المرتّلة الباحث والأستاذ وأي ناطق بالفصحى في جميع المناسبات وخاصة في أحوال الخطاب التي تستلزم التخفيف والاسترسال. فليس كل خطاب خطبة ولا كل كلام ترتيلا. ثم لابد من ملاحظة هامة جدا فإن كان الاسترسال في الكلام اليومي يقتضي التخفيف بالضرورة[2] -فلا كلام يجري في استئناس يتم بإشباع الحركات ولا تحقيق لكل الحروف- فإن حرمة المقام لا تنفي بالضرورة من جهة أخرى التخفيف. ويدل على ذلك من قراءة القرآن ما روى بما يسمى في اصطلاح القراء "بالحَدْر". فالذي تنفيه الحرمة نفيًا باتًا في الخطاب هو اللَّحْن الجليّ أو ما يستعمل من المفردات والتراكيب المبتذلة في العامية[3] وخاصة الدالة على المعاني السخيفة.

وقد يظن الظان أننا نعني بهذا المستوى المسترسل العامية- لكثرة ما رسخ في الأذهان أن التخفيف هو لحن- فالذي نعنيه هو الفصحى التي كان يتخاطب بها العرب في حياتهم اليومية ولم تكن أداء لهجيا بالضرورة وهكذا كانت القراءة القرآنية المروية بالحَدْر ،كما قلنا، وهي القراءة الحاصلة بالإدراج وهو في علم القراءات التخفيف الخاص بما رواه الأئمة. ووجود الحدر دليل قاطع على وجود أداء فصيح مستخف فإن ما ينطق به مما قرأ به الأئمة من الاختلاس والتسكين وجميع أنواع التخفيف هو أمر ثابت لا ريب فيه وهو من كلام العرب. وسنرى كيف يمكن إحياء هذا الأداء الفصيح من جديد.

ومهما كان فانعزال الفصحى - وهي لغة الثقافة القومية الوحيدة- عن الحالات الخطابية النابضة بالحياة أي الحياة اليومية هو خطير جدا لأنه تبدو العربية بذلك كأنها لغة مصطنعة غير طبيعية. فمخاطبة الناس في حاجاتهم اليومية بلغة مرتلة غير طبيعي. وهل يمكن أن يتصور أن العرب في زمان النبي (ص) وبعده كانوا يرتلون كلامهم كما يفعل الممثلون في المسرحيات التاريخية وهم يتخاطبون في حاجاتهم اليومية؟ ومع ذلك فلم يكن كلام أولئك العرب إلا فصيحا في هذه المخاطبات. فالفصاحة عندهم لم تكن ترادف بالضرورة إشباع الحركات وتحقيق الهمزة وعدم الإسكان في كل كلام فهذا النوع من التشادق ليس الاستمرار فيه من الفصاحة في شئ.

والطامة الكبرى في ذلك هو أن يصير كل أنواع التخفيف الخاص بالتخاطب عند الناس وحتى عند المعلمين لحنا لأنه تغيير لما يسمعونه ولما تعلموه في صغرهم. فقد تعوّدوا أن يجهدوا أنفسهم إذا تكلموا بالفصحى وأن يستريحوا إلى العامية (!) عند إحساسهم بالتعب مع أن التخفيف مع الفصحى غير متعذر وغير لحن أبدًا. والتخفيف الذي رواه القراء والذي سمع من فصحاء العرب تضبطه الضوابط ولا يمكن أيكون لحنا.وهذا يجب تقويمه عند الخاصة والعامة وبالخصوص عند المعلمين.

فيكون عندئذ المعلم الذي يمنع كل تخفيف -قد نطق به العرب وقرئ به القرآن- جهلا منه يساهم في إقصاء الفصحى من هذه الحالات الخطابية الحية.وهي حية لأن التخاطب العفوي يعمّ الحياة اليومية. وأخطر من هذا هو أن المسموع من الكلام صار يغطي جزءا كبيرا جدا من ميادين الثقافة والعلوم ولا يمكن أن يقوم فيه الأداء الترتيلي مقام الأداء المستخف. وهذا من القوانين الطبيعية.

ولا تتصف العامية بالخفة في الأداء إلا لأنها تستعمل دوما في التبادل الشفاهي لا المحرّر ولأنها لغة الحاجات اليومية. وقد يكون التخفيف في العامية لحنا كالحذف لنون الرفع وغير ذلك وهو قليل[4]. فليس لحنا[5] لأنه تخفيف بل هو لحن لأنه ليس من كلام العرب.

ثم إن تعليم الفصحى بتأدية واحدة في جميع أحوال الخطاب يؤدّي إلى إقصائها من كل تخاطب شفاهي عادي واستئناسي ويكون هكذا حتى ولو كان في موضوع علمي.

وفيما يخص استعمال الفصحى في الحياة اليومية وفي المستوى الثقافي فلا نتصور أنه يمكن الاعتماد على الأداء الوحيد الذي يتعَلّمَهُ كل واحد منا في المدرسة وما يزال يتعلمه الأطفال هو وحده وهو أداء لما يُقرأ لا لما يُنطق عفويا. لأنه تحقيق شامل ومستمر ولا يكون مستساغا إلا في «موضع الانقباض» أي في ترتيل القرآن وإلقاء الخطب والمحاضرات وإنشاد الأشعار. فالمدرسة لا تعلم إلا هذا الأداء المقروء ولا تعلم الأداء المنطوق المسترسل بل ولا يعرفه المعلمون لأنهم أيقنوا أن للعربية نوعًا واحدًا من الأداء وهو الذي يعلمونه لتلاميذهم وما عداه عامية!

وظهر هذا الميل إلى جعل العربية لغة الترتيل فقط منذ زمان بعيد والسبب جدّ معقول ومحترم. فالخوف الشديد من تحول العربية بكثرة التخفيف المشوّه منه خاصة إلى لغة أخرى (مع أنه ليس كل خطأ ولحن سببه التخفيف) وزوالها الخطير كلغة يرتكز عليها الدين جعل المسلمين يبالغون في المحافظة عليها. فأبعدوا العربية عن كل تخاطب مستخف وتجاهلوا أن اللغة الفصحى كانت قديما تحتاج إلى التخفيف في أحوال التخاطب العفوي ونسوا أن الفصحى التي نطق بها أجدادهم في هذه الأحوال كانت على مثل ما هي عليه كل اللغات البشرية من حيث الخفة والخفة المقصودة ههنا هي التي تخضع للقواعد ليست لحنا أبدا. واستمرّ ذلك مدة قرون إلى زماننا هذا.

فقد كان المعلم يبالغ في بيان الإعراب فيمدّ ما كان يجب قصره في التخاطب العادي ويمطط أصوات الحركات ويبيّن ولا يدغم أبدا ما يجوز

فيه الإدغام وغير ذلك من المبالغات. والمعلم معذور في ذلك لأنه غيور على العربية ويخشى دائما أن تشبه الفصحى العامية من جميع الجوانب حتى ليمنعُ أن يستعمل التلميذ الكلمات الفصيحة المبتذلة في العامية. وبدأ ذلك منذ زمن بعيد ،كما قلنا، فقد حكى الجاحظ في كتابه البيان أنهم «كانوا يروّون صبيانهم الأرجاز ويعلمونهم المناقلات ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب»(272/1). ويروي الجاحظ ما كان تعوّد عليه بعض الناطقين بالفصحى من المولّدين ويسميهم بالمتشادقين وأصحاب التقعّر وهم يمثلون طبقة من معاصريه من الذين اكتسبوا العربية بالتعليم فكان أداؤهم للفصحى في الغالب ينقصه في المشافهة ما كانت تتصف به من الخفة لغة الفصحاء السليقيين. وقد وصف العلماء هذه الخفة. جاء في كتاب «نثر الدرّ» للوزير أبي سعيد الآبي:«قال أبو العيناء: ما رأيت مثل الأصمعي، أنشد بيتا من الشعر فاختلس الإعراب. ثم قال: سمعت أبا عمرو ين العلاء يقول: كلام العرب الدَّرْج وحدثني عبد الله بن سوار أن أباه قال: العرب تجتاز بالإعراب اجتيازاً. وحدثني عيسى بن عمر أن ابن أبي إسحاق قال: العرب ترفرف على الإعراب ولا تتفيهق فيه. وسمعت يونس يقول:العرب تشامّ الإعراب ولا تحققه وسمعت الخشخاش بن الحباب يقول: إعراب العرب الخطف والحذف» (ص 7/154-155).

ولم يكنْ هذا خاصا بالإعراب فقد وصف سيبويه ما يُسمى بالاختلاس للحركات ويحصل في صلب الكلمة (الكتاب، 297/2).

فهذه الخاصية التي امتاز بها الأداء العفوي العربي هو الذي تناساه المعلمون أو جهله الكثير لعدم تلقيهم دروسًا تعلمهم هذا الأداء الذي قرئ به القرآن. ولم يكن التقعُّر خاصا بالمتكلمين العاديين فقد أصاب أيضا بعض القراء. فقد قال ابن مجاهد:«قال محمد بن الهيثم: واحتجّ من عاب قراءه حمزة بعبد الله بن إدريس أنه طعن فيها. وإنما سبب هذا أن رجلا ممن قرأ على سليم حضر مجلس ابن إدريس فقرأ فسمع ابن إدريس ألفاظا فيها إفراط في المدّ والهمز وغير ذلك من التكلف المكروه. فكره ذلك ابن إدريس وطعن فيه»(كتاب السبعة،77).

وقد يؤدي هذا الإفراط في المحافظة على العربية إلى أن تصبح صفة الإعراب هي الخاصية الأساسية للعربية فيبالغون في إظهاره بمدّ حركاته وإشباعها وهو شئ غريب تماما عن لغة العرب ولاسيما موقف الكثير من المعلمين في زماننا الذين لا يعلمون الوقف لتلاميذهم. فهذا لحن فظيع لأنه ليس من كلام العرب إطلاقا حتى في المرتّل من الكلام.

أمثلة من الأداء الفصيح المسترسل

ويمكن أن نذكر ههنا بعض الأمثلة لهذا التخفيف.وهو كله مسموع وله أصول مدونة (ولا نجد ذلك إلا عند المتقدمين من العلماء) فمن ذلك عند توالي الحركات وقد أشار إلى ذلك سيبويه:«فأما الذين يشبعون فيمططون...وأما الذين لا يشبعون فيختلسون اختلاسًا وذلك قولك: يضربك ومن مأمنك يسرعون اللفظ. ومن ثمّ قال أبو عمرو:«إلى

بارئكم»(البقرة 84) (الكتاب 297/2) فمن ذلك«أحَدَ عْشَرَ كوكبا» (يوسف4). قرأ بذلك أبو جعفر والحسن وسمعه النحاة من العرب بإسكان العين من عشر. ويكثر هذا التخفيف في الأداء القرآني فيما روى من القراءات: فقد روي الإخفاء والإسكان والإشباع في آخر حرف الفعل مثل «أرنا مناسكنا» (البقرة 128)، وكذلك في «يأمرهم» (الأعراف117)، و«يشعركم» (الأنعام 109) و «ينصركم (آل عمران 160). وقال مكي المقرئ :«وعلّة من أسكن أنّه شبه حركات الإعراب بحركة البناء فأسكن حركة الإعراب استخفافًا لتوالي الحركات (الكشف،1/240-241). وفي كل هذا الاختلاس جائز. والاختلاس شبيه بالإسكان إلا أن الحرف مع الحركة المختلسة بزنة المتحرك[6].ويحصل الاختلاس وجوبا في حالة استحالة الإدغام لسكون سابق مثل: ابنُ نوح واسمُ موسى. يقول سيبويه: لم يجز أن يسكن ولكنك إن شئت أخفيت»(الكتاب 407/2). والنطق بذلك يحصل هكذا: ابْ/ننوح.واسْ/ممُوسى.فالضمة أخْفي صوتها وأضعفت بحيث صار الحرفان (النونان والميمان) كأنهما متحركان بحركة واحدة. وهذا لا يظهر إلا بالمشافهة[7]. وكذلك في شهـ/رمضان؟شهر/ررمَضان. وقد يغلب الإسكان حتى على الحرف المتحرك المدغم فيه وذلك: مُتَعَفِّفًا فينطق به: مُتَعَفًا. وكذلك في قراءة من قرأ: لا تَأْمَنَّا، عوض لا تَأْمَنُنَا (يوسف 11).

وليست ظاهرة الاختلاس للحركات خاصة بالعربية بل هي تشمل كل اللغات البشرية وذلك بالنسبة لمستواها العفوي لا المتكلف والأمثلة

على ذلك في اللغة الفرنسية والإنجليزية كثيرة جدا. أما في عاميات اللغة العربية وخاصة في لهجات شبه الجزيرة العربية وبالمغرب فيكاد لا يحصى.

وفيما يخص اختزال الحروف فهناك المشاكلة أو التقريب: يقول سيبويه:« فأما الذي يضارع به الحرف من مخرجه فالصاد الساكنة إذا كانت بعدها دال، وذلك نحو مصدر واصدر-الميل بالصاد إلى الزاي- وسمعنا العرب الفصحاء يجعلونها زايًا خالصة... فإن كانت في موضع الصاد وكانت ساكنة لم يجز إلا الإبدال إذا أردت التقريب، وذلك قولك في التسدير= التزدير، وفي يسدل ثوبه = يزدل ثوبه».وينطق بهذا أيضا مع القاف وكذلك بالنسبة إلى التفخيم. كما أنّ هناك حروفا فرعية مستحسنة هي نتيجة للمشاكلة كالنون الخفيفة والهمزة التي بين بين والشين التي كالجيم، مثل الجيم الرخوة التي في الفرنسية، وذلك مثل: أشدق aš̌daq ينطق بهajdaq .

ويكثر التقريب والإبدال في الإدغام عند تماثل الحرفين كما هو معروف وليس من سياق في الفصحى المنطوقة العفوية إلا فيه هذا التشاكل الصوتي. وقد ذكر اللغويون الأمثلة الكثيرة في ذلك. وكذلك علماء القراءات. وذلك مثل: مَنْ بَدا لَك-مَمبْدا لَك. العنْبر-العمبْر. أكْرِم به-أكربِّه (مع الغُنَّة في الباء).اصحبْ مَطرا-اصْحمّطرا. أُنقذ طالبًا-انقطَّالبًا. انْعت طالبًا-انْعطّالبا. افحص زردة-افحزّردة. احبِس صابرا-احبِصَّابرا. خُذ ثابتًا-خُثابتًا. ابعث ذلك-ابعذَّلك. وجملة مثل:«ذهبت

سلمى وقد سمعت، «كان ينطق بها العرب في مقام أنس: ذَهَبَسَّلمى وقَسَّمِعت. وقال أيضا وسمعناهم يقولون: مُزّمان، فيدغمون الذال في الزاي ومُسّاعة فيدغمونها في السين».

وكل هذا من أنواع الإدغام موجود في العاميات بل وفي جميع اللغات التي يتخاطب بها يوميا أيا كانت سواء منها لغات الثقافة أو لغات الخطاب اليومي الذي يجري في الحاجات البسيطة. ولم يكن العرب الذين استشهد بكلامهم في القديم يختلفون عن غيرهم فقد كان خطابهم اليومي يشبه هذا الذي جئنا به من أمثلة الإدغام مماثلا تماما من حيث التخفيف لعامياتنا وهو تخفيف فصيح رواه النحاة الأولون الذين شافهوا هؤلاء العرب.

وأما الإدغام بدون قلب مثل: المال لك-المالّك. اخشيْ ياسر-اِخشيَّاسرا. كل ذلك مأخوذ من باب الإدغام في الكتاب. وإخفاء النون في سائر الحروف ما عدا حروف الحلق شئ معروف عند القراء يمارسونها في كل تلاوة في «من لدّنه» (النساء 40). و «من ربّهم» (البقرة 5). و«من يقلّ» (الأنبياء 29) بإجماع القراء على الإدغام بغنّة، ويقول مكي: «والإظهار في مثل هذا يعده القراء لحنا بالحروف الغليظة»(الكشف 62/1). وهذا لا يعرفه أكثر المعلمين فهم يعلّمون اللحن مثل الوقف بالحركة ولا يبالون، مع أنهم قدوة لا للتلاميذ فقط بل لكل من صار ويصير من الراشدين المثقفين من هؤلاء التلاميذ. ونؤكد أنهم معذورون لا ذنب لهم إذ لم يتلقوا دروسا في ميدان الأداء.

أما الهمزة فمن المعروف أنّ تخفيفها قد سمع من عدد كبير من العرب. وكان حمزة (أحد القراء السبعة) يستحب ترك الهمز في القرآن كله إذا أراد أن يقف... وروى عن ورش عن نافع ترك الهمز الساكن... وكذلك المتحرك. أما أبو عمرو فكان إذا أدرج القراءة، أو قرأ في الصلاة لم يهمز همزة ساكنة مثل: يومنون ويومن وياخذون... وعن عاصم أنّه لم يهمز الهمزة الساكنة. ومثل ذلك كلمة «ذيب» و «بير» وأمثالهما فهو كثير في الكلام وخاصة هذا المستوى الذي يسميه ابن مجاهد بالإدراج. وكم من معلم يخطّئ التلميذ الذي ينطق بهذه الكلمات بدون همزة. وقال سيبويه: «إذا كانت الهمزة مضمومة وقبلها ضمة أو كسرة فإنّك تصيّرها بين بين، وذلك قولك: هذا درهمُ اخْتك ومن عندِ امِّك. وهو قول العرب». (الكتاب 164/2). ومثل ذلك: ألَحْمر إذا أردت أن تخفف ألف الأحمر. ومثله في المرأة: المَرَة وكذلك الكماة. (الكتاب 65/2). وكذلك يجوز أن تقول: «يريد أن يقريك» و «خطّية ومقرو» و «أبو يُوب» و«حَوَبَة» و «قَريَت الكتاب». وغير ذلك كثير جدًا، وجدّ متنوع وقد أُهدرت كل هذه الإمكانات الأدائية في التعليم وفي تكوين المعلمين بحصرهم العربية في مجال التحرير والترتيل ليس غير.

وجاء في كتاب سيبويه أيضًا ما شذّ من ذلك عن القياس - لا عن الاستعمال لأنّه كثير في كلام العرب وذلك مثل: أَحَسْتُ ومَسْتُ وظِلتُ ويسطاع (عوض يستطيع) وبَلْعنَبر وبَلْحارث (عوض بنو العنبر وبنو الحارث) وعَلْماء بنو فلان. يريد على الماء... وهي عربية (الكتاب 428/2).

فكل هذا فصيح إلا أنه عرض له عارض التخاطب العفوي ولا ينبغي أن يوصف باللحن بسبب عدم مجيئه في الأداء المر تّل.

وقد تسقط حروف عديدة من العبارة الواحدة في الكلام المنطوق الفصيح لكثرة الاستعمال. فقد سمع من الكثير من العرب الموثوق بهم قالوا: أَيْشٍ هذا وهم يريدون أي شيء هذا. (معاني القرآن للفراء، 53/2).

أما التراكيب فقد نقل العلماء الأولون العدد الكبير جدا من التراكيب التي يكثر استعمالها فيصيبها لذلك حذف وإضمار وتقديم وتأخير. وهذا ينتمي إلى ما يسميه سيبويه بسعة الكلام والاختصار. ينقل سيبويه المئات من التراكيب التي سمعها من الكلام المنطوق وهي تمثل اللغة الحية النابضة بالحياة. وأكثر ما رواه العلماء من التخفيف يصفونه بأنه «عربي كثير» كما وصفوا بذلك الأضرب من الكلام التي ليس فيها تخفيف. ونبهوا على الشاذ في الاستعمال منه كما نبهوا على غير المخفف كذلك. ويتعجب الناس في زماننا من هذا التنوّع في الأداء والأساليب، وهو دليل على حيوية العربية لا كلغة أدب وشعر فقط بل وكذلك كلغة يتخاطب بها الناس بدون تكلف (يراجع الكتاب وخاصة أبواب الاتساع والاختصار، وأبواب المنصوبات وإضمار الفعل وغير ذلك مما يكثر فيه التخفيف وهو مما يخضع لأصول معينة مناسبة تماما لأصول كلام العرب).

ضرورة إعادة الاعتبار لتعليم الأدائين الفصيحين: المسترسل والمرتّل

إن اللغة العربية الفصحى أُقصيت من التخاطب في حالة الأنس لأن المعلمين قد شددوا العناية بالسلامة اللغوية وهو عمل واجب ونافع إلا أنهم اقتصروا على هذا الجانب ولم يتجاوزوه على الاطلاق وتناسوا الجانب الاستعمالي التخاطبي للغة. فقد ضحّوا بخاصية هامة من بين خاصيتين تتصف بهما كل لغة: وهو من جهة ما تقتضيه هوية اللغة التاريخية الاجتماعية من البقاء على نفس البنية وبالتالي حصول السلامة من كل تغيير يجعلها تبتعد به عما كانت عليه كنظام خاص ويزول حينئذ استمرارها كلغة خاصة من بين اللغات ومن جهة أخرى ما يقتضيه الاستعمال في أحوال الأنس أو الاسترسال من الخفة ومن ترك كل ما هو زائد على ما يحتاج إليه الحديث من الأدلة بفضل القرائن التي تتوفر في المكالمة الشفاهية العفوية. وهذا لم تستجب له العربية التي كان يلقنها المعلمون للصبيان. مع أن هذه الخفة ضرورية جدا في المشافهة المستمرة أي في الحديث الذي يحصل في كل وقت. فلا استعمال للغة يطول إلا في استئناس. ولا استئناس إلا بعدم الكلفة. والعربية كما يتعلمها الناس مكلفة لا تستجيب لما يتطلبه التخاطب المسترسل.

فحافظوا على جانب السلامة ولم يهتموا أبدا بإبقاء الفصحى على ما كانت عليه قبل بوجود جانب الأداء العفوي فيها.

وقد قامت العربية الملحونة في كل بلد عربي مقام العربية الفصحى المسترسلة التي كان يستعملها العرب في حياتهم اليومية[8] بل هي التي تحولت إلى تلك العاميات المختلفة فأما محاربة هذه العاميات فيكاد يكون عملا عقيمًا مع بقاء تعليمنا للعربية على ما هو عليه.

وعلى هذا يجب ،في نظرنا،أن يعتدّ هذا التعليم بالأدائين المسترسل والمنقبض (أو المرتل) اللذين عرفهما السليقيون ممن أخذت منهم اللغة وهما موجودان في جميع اللغات وكلاهما ينتمي إلى العربية الفصحى وغياب الأداء المسترسل الفصيح يؤدي إلى تعميم العامية في جميع أحوال الخطاب حتى الخطاب العلمي والخطاب الموجه للجمهور إذْ صار هذا الخطاب اليوم خطابا شفاهيا يقتضيه عصر المشافهة الشاملة الذي نعيش فيه منذ قليل. و انفراد العامية بخاصية الاسترسال سيجعلها تسود كل التواصل حتى تدريس العربية الفصحى نفسها:فقد يستريح المعلم بلجوئه من الأداء المنقبض إلى العامية بسبب خفتها بالمشافهة العفوية وغير العفوية فلماذا لا نعطيه فرصة ليستريح إلى ما تتمتع بها العامية من الخفة بالأداء الفصيح المسترسل؟ فهو أمر جد طبيعي أن يجري وراء الخفة وينبغي أن نلوم أنفسنا ولا نلومه هو لأننا لم نعلّمه كيف يحدّث غيرّه بالفصحى المسترسلة في المقامات التي تستلزم ذلك.

والذي نقترحه للاستجابة لما يتطلبه العصر من التواصل الشفاهي الشامل فهو إعادة الاعتبار في التعليم لهذا الأداء المسمّى أيضا بالدَّرْج أو الإدراج (وسميت العامية بالدارجة بسبب التأدية المستخفة ويسمى عند

القراء بالحذْر) مع التمسّك الشديد بالأداء الإجلالي لأنه جانب آخر مهم من الاستعمال (بشرط تنقيحه والاعتداد بالوقف فيه).

فالذي نتمناه أن يتحقق ليس هو تفصيح العامية فهذا يستحيل تحقيقه بمجرد «قُلْ ولا تقلْ». فقد حاولت الأمم القيام بهذه التصحيحات بهذا الأسلوب الساذج في جميع اللغات تقريبا ولم توفّق. إنما المطلوب وهو أنسب أن لا يُستهان في تعليم العربية في المدارس بالأداء المسترسل وهو حق لها سُلب منها ظلمًا وجهلاً من الناس أن لكل اللغات البشرية مستويين من الأداء وأن ما يعلم منه بالنسبة للعربية ليس هو وحده فصيح بدليل ما وصفه العلماء من ظواهر التخفيف الفصيح الكثير وما سموه بسعة الكلام والاختصار. وتعليم الأدائين لا يتم إلا بالتمييز الواضح بينهما بتخصيص المقام المناسب لكل واحد منهما. وهذا يقتضي أن لا يُخطّئ المعلم التلميذ إذا حذف ما حذفه العرب أو اختلس حركة كما اختلسوا وكما يستلزمه حال الخطاب.

وهذا يحتاج أن يصدر بشأنه قرار في المستوى العربي الدولي ويُعدّ له العُدّة في القطاع المعني بالتعليم[9]. فمن الضروري أن تخصص له حِصَص في دروس اللّغة العربية في المستويات الأولى ويُستعان في ذلك بالوسائل السمعية البصرية وكذلك في مستوى تكوين المعلمين مع التنبيه الدائم على أن هذا الأداء هو فصيح ويختص به التخاطب الشفاهي العفوي غير المحرّ ويليق مثلا بالمسرحيات والأفلام والموائد المستديرة وكل مقام أنس ولا يمكن أن يحل أبدا محل الأداء الآخر الذي يقتضيه المقام المناسب له.

ولابد أن يدّعم هذا التجديد التعليمي بالنسبة للغة ذاتها بتجديد جذري لطرائق تعليم العربية وهذا يرتبط أشد الارتباط بالبحث العلمي في تعليم العربية.

وتضاف إلى تلك القرارات العربية في أعلى قمة تدابير يجب أن تتخذها وتتكفل بها بعض المؤسسات العلمية العربية وهي القيام ببرامج من البحوث حول المستوى المسترسل من العربية هدفها الوصول إلى وصف علمي دقيق لهذا المستوى وحصر قواعده وأحوال الخطاب التي يقتضيها. وعلى أساس ما يتوصل إليه من النتائج والتحقيقات والمسح الواسع لما تركه النحاة واللغويون العرب وما يوجد في القراءات القرآنية، يؤلف كتاب يحتوي على هذه الأوصاف والضوابط.

وتنظم حينئذ في كل دولة عربية دروس لفئات خاصة من الناس لتعليم الأداء المستخف بالاعتماد على الكتاب السابق الذكر. ويمكن أن تجري على شكل دورات تدريبية. تخصص أولا: للمدرسين من الابتدائي ثم من الثانوي. ويتكفل قطاع التربية بكل ما يتطلبه هذا التدخل من الخبراء والمدربين والتمويل وما إلى ذلك. ويُلجأ في هذا التعليم إلى الوسائل السمعية البصرية وطرائق تعليم اللغات الحية في أحدث أشكالها.

ثم إن هذا سيكون غير كاف وغير ناجع إذا لم نفكّر في المحيط الذي يحيط بالناس يوميا مما يسمعونه من الكلام. فهذا الجانب له تأثير عميق جدا في تعليم اللغة وذلك بتناقل الناس بعضهم إلى بعض أساليب

كلامهم وكيفية تأدية مفاهيمهم وأغراضهم. وأهم ما يوجد في هذا المحيط وأوسع تأثيرا هو وسائل الإعلام المسموعة والمرئية ووسائل التسلية العامة كالسينما والمسرح. ويؤثر في وسائل الإعلام بصفة خاصة المذيع والمنشط. ولهذا فلابد من أن تساهم هذه الفئة من الناس في الحملة التعريفية التي نأمل أن يقوم بها كل قطاع تربوي في كل بلد بالتعاون مع الحكومة والقطاعات المعنية مثل الإعلام والتعليم العالي بصفة خاصة[10].

ثم هناك سبب آخر في جعل الفصحى المنطوقة لا تسير سير غيرها وهوعدم الاهتمام السويّ باللغة العربية في التعليم العالي للعلوم والتكنولوجيا خاصة وهوما يبديه المسؤولون منذ زمان وكل نشاط يتعلق بالميادين الطلائعية من الإنتاج الفكري وغيره. وهذا لا يخص المنطوقة منها بل اللغة كلها. وهذا خطير جدا لأن غياب اللغة في ميدان حي من ميادين النشاط الإنساني يجعلها يتقلّص حظها من التأثير وتزول أهميتها شيئا فشيئا حتى تزول هي بنفسها عن الوجود والعياذ بالله.

فإن كانت للغات الأجنبية هي التي تحمل إلى العالم بأجمعه كل ما يجد من جديد في العلوم والتكنولوجيا في زماننا فهذا لا يلزمنا أن نجعل تعليمنا لهذه الأشياء المستجدة وغيرها في التعليم العالي كله باللغة الأجنبية. فوجود العربية في كل ميدان ولو بقسط معقول هو شرط وجودنا.

ونكرر في الختام ما قلناه عدة مرات في هذا البحث وهو وجود عربية فصحى واحدة لا لغتان اثنتان على الإطلاق مع وجود استعماليْن أو أداءيْن لها يختلفان باختلاف المقام: في حالة الأنس وفي حالة الانقباض. وقد يكون هناك تداخل بينهما إذا ارتفع مستوى الحديث بين شخصين يكون بينهما أنس. ولا يختلف هذا الأداء عن الآخر إلا بالخفة التي تتحقق بالاختزال الكثير وهذا حاصل بالنسبة لجميع لغات الدنيا وبصفة خاصة التي تحظى بكتابة ويكون لأصحابها حضارة أيا كان مستواها. والامتناع من الاعتداد بالمستوى المسترسل الفصيح هو عمل على إقصاء العربية الفصحى كلها من كل ميدان في عصر المشافهة. لأن اللغة ذات القدر هي التي تستعمل في أكثر من مقام. ونرجو من الله أن تزدهر اللغة العربية لغة كتابه العزيز بتوسع مجال استعمالها في جميع الميادين على ما تقتضيه أحوال الخطاب ولاسيما في عصرنا هذا.

والله ولي التوفيق

الهوامش:

(1) وإن كانت المشابهة بعيدة لأن اللاتينية التي كانت لغة الثقافة كانت لغة أخرى تماما غير اللهجات المتفرعة منها. ثم إن اللهجة التي صيّرها فرنسوا الأول ملك فرنسا(ت في 1547) كانت قد صارت منذ زمان هي لغة الأدباء والشعراء.

(2) إلا في حين حدوث سوء الفهم من المخاطب فيحتاج إلى المزيد من البيان في الأداء.

(3) وهذا ما أوصى عليه كثيرًا البلاغيون المتأخرون (وهذا دليل على وجود هذا الميل في القديم إلى الاقتصار على تعليم مستوى واحد من العربية:المحرّر الإجلالي).

(4) والذي قد يتجاهله المعلمون هو ان العربية الفصحى التي كان يتخاطب بها العرب في زمان الفصاحة السليقية كانت بنفس الخفة التي تعرفها العامية اليوم إلا مالم يروه العلماء ولم ينطق به العرب والدليل على ذلك أوصاف النحاة الأولين لها كسيبويه وعلماء القراءات.

(5) اللحن في العامية لا ينحصر في التخفيف (إذ الكثير منه فصيح). بل في إقحام المفردات غير الفصيحة (أسماء وأفعالا وأدوات) وترك أنواع التراكيب الفصيحة. والذي نلاحظه في زماننا هو تغلّب لغة المنشأ -وهي العامية- على كل كلام مسترسل كما هو متوقّع وبقلة إذا كان الموضوع ثقافيا وذلك على درجات بحسب الأفراد والفئات.

(6) فالنطق به حاصل باختصار الحركة وإضعافها حتى تصير غير مسموعة (مع وجودها كحركة لا كسكون وهذا يحتاج لبيانه إلى المشافهة).

(7) وتظهره بوضوح الراسمات الالكترونية.

(8) وكان اكتساب هذا الأداء المستخف المأنوس حاصلا في زمان لم ينتشر بعد اللحن فيه وذلك في الأوساط من العرب الذين لم تتغير لغتهم. أما تحول اللغات عبر الزمان فإن كان أمرًا طبيعيًا -له أسبابه وظروفه- فإن ظاهرة المحافظة على اللغة بالتعليم والإنتاج الفكري واستقرار الدولة وغير ذلك هي أيضا أمر طبيعي.

(9) هذا دعونا إليه منذ القديم (انظر البحث الذي قدمناه في مؤتمر مجمع القاهرة في عام 1990 وقد نشر في مجلة المجمع في 1992).

(10) وإذا قلنا لغة التخفيف أو لغة التخاطب فهو مجاز وحقيقته الأداء المأنوس.